

## الفصل السابع والعشرون

### [ عواقب الخيانة ]

كان أول مسكن في خطتنا هو مسكننا القديم.. نزلنا من المركبة وتوجه الحارس لرفاقه في المسكن والذين كانوا متحفزين بسبب خوفهم من ثورة السجناء من جديد، رغم أن أغلب السجناء قد فضل اللجوء لمسكنه بانتظار ما سيحل بهم..

تقدمت وسط المساكن أتأمل الموقع الذي ضمنا لفترة طويلة.. ورغم أنني كرهت هذا المكان وكرهت كل زاوية فيه، إلا أنني لم أملك ابتسامة ارتسمت على شفتي وأنا أتذكر كل ما مرّ بي هنا.. وقد قال أدهم الذي اقترب مني معلقاً عليها "لم هذه الابتسامة؟ أهذا حنين لأيام السجن السعيدة؟" التفت إليه قائلة "ربما.. من يدري.."

نظر لي أدهم بتعجب كبير، وإن لم يصف كلمة أخرى وهو يدور بعينه في المكان.. ولم تمض لحظات حتى وجدنا تلك العينان الحادثان تكادان تحرقاننا حيث وقفنا.. ورغم أننا نسيناه، إلا أن صقراً كان ينتظر هنا في المساكن وينظر لنا بذهول شديد.. لم أرغب برؤيته بعدما حدث بيننا وبينه، لكنه كان مصرّاً على هذه المواجهة.. إذ اقترب منا وهو يثبت نظراته الحاقدة على أدهم الواقف قربي.. فقال أدهم بسخرية "أما زلت حياً أيها الأحمق؟"

أجابه صقر بسخرية مماثلة "أما زلت حياً أيها الوغد؟ لقد قضيت ليالي أتمنى لك الموت من كل قلبي" فعلق أدهم مبتسماً "ويبدو أن أمانيك غير مستجابة لحسن حظي"

وجدت صقر يندفع فجأة حيث وقف أدهم قربي وقام بأغرب شيء يمكن تخيله.. إذ ارتفعت يده المضمومة ووجه لكمة أحسبها بأقوى ما عنده لوجه أدهم.. ورغم ما بدا على لكمته من قوة فإن أدهم لم يتحرك من موقعه، ولم يبد أنه تأثر بها إلا بالتفاتة بسيطة من رأسه.. عندها، لم أملك إلا أن أضحك من القلب لهذا المنظر ولجراءة صقر وأدهم ينظر لصقر بنظرة ساخرة امتزجت باستغراب متفاجيء، بينما شهقت بسمة التي كانت قريبة وهي تنظر لوجه أدهم بقلق.. ثم دفع أدهم صقراً في صدره بقوة قائلاً "ابتعد يا هذا.. لست في قائمة مهامى لهذا اليوم.."

تراجع صقر للخلف حتى كاد يسقط أرضاً وهو يتبادل نظرات كره عارمة مع أدهم.. ثم ابتعد عنا بصمت دون أن ينسى أن تبدو تعابير وجهه بأقصى كره واشمئزاز يمكن أن تظهره، فقلت لأدهم بتعجب "لماذا لم ترد على لكمته رغم أنك لست طيب القلب عادة؟"

قال أدهم مشيراً لفكه "عندما ضربني بقوته الهزيلة تلك، أشفقت عليه.. لابد أن يده تؤله الآن بأكثر من

فكي، ولم أرد أن أزيد عذابه.."

ضحكت من جديد وقد بدا لي الأمر طريفاً، مما كما يبدو قد ساء الحارس الذي سمعناه يقول بضيق من خلفنا "لا تنشغلوا بأمور تافهة.. أمامنا عمل مهم ومدة محدودة، ولا يجب أن نتأخر عنها"

سأله أدهم "وما الذي أنجزته؟"

أجابه "لقد تفاهمت مع الحراس في هذه المساكن على ما يجب فعله.. الآن يجب أن نحصر السجناء ونتأكد من الوقت الذي مر منذ حصلوا على العقار.. لكن في البدء، يجب أن يحصل الحراس على جرعتهم الآن.. إذ أن مواعدهم في غضون يومين تقريباً.."

انطلقنا لأداء ما اتفقنا عليه في المساكن.. فجمع الحراس السجناء في الساحة التي تتوسط المساكن، وتولى أدهم حصرهم وسؤالهم عن الفترة التي مضت منذ تلقوا تلك الحقنة المهمة..

أما أنا والحارس الذي قدم معنا فقد تولينا حقن الحراس في هذه المساكن بنصف جرعة من العقار.. في تلك الأثناء، كان خالد يقول لأحد الحراس ممن كانوا معه أثناء انتقالهم من منجم لآخر "أتظن أن ذلك المهبط الموجود في المباني الإدارية هو الوحيد على الكويكب؟"

قال الحارس "أجل.. هذا ما أعلمه"

هتف خالد "خطأ.."

نظر الحارس له بدهشة، فأضاف خالد "لا يمكن لهذا الكويكب أن يحوي مهبطاً واحداً فقط.. لابد من وجود مهابط أخرى في مكان ما.."

فغمغم الحارس "لست أدري حقاً.. أنا جديد هنا ولم يمض شهر على قدومي.."

فقال خالد باهتمام "اتصل بالحراس على القناة العامة.. لتخرج مجموعة منهم للبحث عن أي مهابط للسفن.. لابد أن نجد قربها محطة مراقبة وبالتأكيد سنجد فيها أجهزة اتصالات.. وربما لو كنا محظوظين سنجد سفينة فضاء"

تساءل الحارس "ستأتي سفينة فضاء غداً بالتأكيد فهذا هو مواعدها"

قال خالد بثقة "لن تأتي.. لابد أن الإداريون قد أجروا اتصالاتهم وألغوا الرحلات القادمة للكويكب.."

قال الحارس باستغراب "بأي حجة؟"

أجاب خالد "لا علم لي حتى الآن.. لكنني واثق أن هذا ما حدث.. عثورنا على سفينة في الكويكب هي وسيلتنا الوحيدة"

غمغم الحارس وهو يفتح قناة الاتصال العامة في جهازه "أنت متفائل"

ابتسم خالد مجيباً "لا بأس ببعض التفاؤل.."

\*\*\*\*\*

في أحد المساكن البعيدة شيئاً ما، تولى وليد وأمجد حصر السجناء وسؤالهم عن موعد آخر جرعة أخذوها من العقار.. فاكتشفوا أن موعد أخذهم للجرعة قريب جداً ويجب حقنهم به قبل أن تظهر عليهم أعراض الاختناق ويخسروا أي أرواح هنا..

تولى وليد أمر حصر السجناء بينما قام أمجد مع حارسين آخرين بإعطاء نصف الجرعة لمن يتم حصرهم.. كان أغلب السجناء في هذه المساكن من القدماء تقريباً.. وبعضهم يعرف هوية العقار وأهميته.. فوجد أمجد أحد الرجال يتساءل قبل أن يتلقى الجرعة "لقد قالوا إن الإداريين قد هربوا بسفينة الفضاء.. أهذا صحيح؟"

لم يجبه أمجد لئلا تثير مثل هذه المعلومة بلبله جديدة في هذه المساكن، فعاد الرجل يسأل بشيء من الضيق "أحق أن مخزون الأدوية قد دمر ولم يبق منه إلا هذه الجرعات؟" تجاهله أمجد من جديد، فقال الرجل بحدة "أجبنني.."

قال أمجد بصرامة "هل يريحك أن تعرف أن الجواب هو نعم؟ لم لا تصمت لأنهي عملي وينال من خلفك جرعتهم بهدوء؟"

صمت الرجل بمضض وهو يمد ذراعه المكشوفة لأمجد.. فقام أمجد بحقن نصف كمية الدواء في جسد الرجل قبل أن يشير إليه ليرحل.. سار الرجل بخطوات متمهلة قبل أن يفاجأ به أمجد يلكمه بقوة على وجهه ليزيحه جانباً ثم ينقض على الصندوق ويسرق بضع علب منه بما تحتويه من إبر.. ثم تراجع بسرعة قبل أن تصله يد بقية الحراس..

صاح فيه أحد الحراس وهو يتقدم منه بحدة "كف عن هذه الألاعيب وأعد العقار.. هناك من سيُحرم من جرعته باستيلائك عليها"

صاح الرجل بصوت متوتر "لا يهمني.. لقد هربوا وتركونا هنا.. وهذه هي الجرعات الأخيرة على الكويكب.. فهل ستكفيينا كلنا؟ كم سيطول بنا الوقت قبل أن تنفذ هذه الجرعة الهزيلة من أجسادنا؟" قال أمجد مقطباً وهو يفرك فكه متألاً "أهذا يعني أنك ستضحى بالآخرين لتعيش أنت مدة أطول؟ ثم إن بقاؤنا هنا لن يطول.. سنغادر عما قريب.. فأعد العلب بهدوء"

قال الرجل بعصبية وهو يتراجع "لا يهمني.. لا أهتم بأحد البتة.. لكن لا أريد أن أموت مختنقاً.. أنتم واهمون فلن يسأل شخص عنا هنا ولن يحاول أحد إنقاذنا.. أنا لا أريد أن أموت.."

بدأ بقية السجناء يتململون بضيق وبعضهم ينظر لصندوق الأدوية بنبرة لا تخفى على أحد.. لكن الحراس أحاطوا بالصندوق مشهرين أسلحتهم بتوتر، بينما قال أمجد وهو يقترب من الرجل "أعد

العلب بهدوء وكف عن هذه الأثانية.. من تكون أنت لتحرص على حياتك وتتسبب بموت الآخرين بدلاً عنك؟”

صرخ الرجل بغضب “قلت لك لا يهمني أي أحد.. المهم أن أعيش أنا.. المهم ألا....”  
 باغتته ضربة قوية على رأسه أفقدته الوعي فتهاوى جسده أرضاً، لكن وليد الذي كان خلفه سارع ليسنده ويتأكد من سلامة العلب الثمينة بين يديه.. وبعد أن أسرع أمجد باستعادتها منه ترك وليد جسد الرجل يسقط أرضاً وقال لأحد الحراس “راقبوه جيداً حتى ننتهي من بقية السجناء فقد يستيقظ في أي لحظة.. لدينا من الهموم ما يكفينا للآن..”  
 وصاح ببقية السجناء “اسمعوا.. الموقف الذي نحن فيه لا يتحمل أي أنانية منكم.. من يُبدي أي تصرف كهذا الذي رأيناه فلن أتردد في إطلاق النيران عليه.. خسارة رجل واحد خير من خسارة العشرات.. فكونوا حذرين”

غمغم أمجد وهو يعود لعمله “لم يكن هناك داعٍ لهذه التهديدات..”  
 قال وليد وهو يدور بعينه بين السجناء “لكني أعنيها حقاً..”  
 استعاد السجناء هدوءهم وهم يطيعون أوامر أمجد والحراس بصمت تام.. فزفر وليد وهو يعود لعمله بدوره وضيق شديد لا يكاد يغادره..

\*\*\*\*\*

مضى علينا وقت غير قصير في هذه المساكن، قبل أن ينتهي الحراس من عملهم ويعطوننا حصراً شاملاً للسجناء وكل المعلومات التي طلبها خالد منا.. كان الظلام قد حلّ وأنيرت المساكن بمصابيح متفرقة على الأعمدة المحيطة بها.. تناولت الأوراق التي سلموني إياها واتجهت للمركبة حيث وقف أدهم يتحدث في جهاز الاتصال.. ولما انتهى ناولته الأوراق قائلة “هل من جديد؟”  
 قال أدهم متتهماً “ليس بعد.. لقد استطاع خالد احتواء الثورة في المساكن التي مرّ بها، لحسن حظنا.. ولكن الأمر لا يتعدى ذلك..”  
 جلست جانباً وهو يقول مقطباً “ما الذي سنفعله الآن بعد أن ننتهي من حصر السجناء وضمان حصولهم على العقار؟ هل سننتظر قدوم سفينة فضاء أخرى وأنا أشك بذلك؟ كيف سنغادر ونحن لا نملك وسيلة اتصالات بالعالم الخارجي بعد أن حطمها أولئك الأوغاد؟”  
 قلت معلقة “لا تتعب عقلك بكل هذه الأسئلة الآن.. ربما نسي الإداريون أمر الرحلات المعتادة للكويكب.. سيكون من حسن حظنا لو قدمت سفينة فضاء غداً في موعدها”

لم يبد على أدهم أنه مقتنع بهذه الفكرة وهو يزفر، بينما اقتربت بسمة وجلست قربي صامته لثوان، قبل أن تغمغم "أنا متعبة.."

التفت إلى أدهم متسائلة "هل سننتقل للمساكن التالية الآن أم نبقى هنا الليلة؟" أجابني أدهم "بقاؤنا هنا أفضل.. لن نجد السجناء في المساكن الأخرى مستيقظين بعد يوم عمل شاق.. ونحن بحاجة للراحة أيضاً" وعاد لجهاز الاتصال في المركبة مضيفاً "سأبلغ خالداً بهذا.. لا أريد أن يؤنبني على التأخير فيما بعد.."

فالتفت لبسمة قائلة بابتسامة "يبدو أنه مقدر علينا أن نقضي ليلة أخرى في مسكننا القديم" ابتسمت ابتسامة صغيرة قبل أن نعود بأبصارنا للساحة التي لطالما ضمتنا في زاويتها.. والتي ستضمنا ربما للمرة الأخيرة..

\*\*\*\*\*

"وجدتها.."

صاح أحد الحراس بهذه الكلمة بصوت عالٍ كاد يصيب خالداً بصمم وهو يبعد جهاز الاتصال عن أذنه، ثم قرب الجهاز مجدداً وهو يقول "كف عن الصراخ.. ماذا وجدت؟" قال الحارس بلهفة "سفينة فضاء.. لقد وجدنا واحدة رابضة في إحدى الحظائر الموجودة قريباً من المنجم (ج).. لم نكن نعلم بوجودها سابقاً فهذا المهبط مهجور تماماً ومحاط بسور يمنع الفضوليين من الدخول إليه"

تساءل خالد باهتمام "وهل هي صالحة للسفر؟"

أجاب الحارس "لست أدري.. إنها تبدو لي على أتم ما يرام.. لكن يجب أن نجرب تشغيلها لنعرف وأنا لا خبرة لدي في ذلك"

فقال خالد "تفحصوا السفينة والمكان جيداً.. ساتي إليكم فور أن أنتهي من هذه المساكن" وافق الحارس وهو ينهي الاتصال، ثم تأمل السفينة الضخمة الرابضة في حظيرة ذات سقف عالٍ يحتويها دون مشقة.. وذلك ضمن أربع حظائر أخرى فارغة من أي أثر لسفن أخرى.. بعد ليلة كاملة قضوها في بحث مستمر، ها قد كللت جهودهم بالنجاح مع أول خيوط النور التي تسالت للكويكب.. تساءل أحد الحراس بتعجب "لماذا أقاموا الحظائر هنا بعيداً عن المباني الإدارية؟ وهناك مهبط للسفن أيضاً قريباً.."

قال الحارس الأول وهو يدور متأملاً السفينة "ما هذا الذكاء؟ هذا مهبط احتياطي في حال تعرض الأول للهجوم لأي سبب من الأسباب.. لا تنسى أن العديد من الدول كانت تتنافس على الكويكب، ولا زالت هذه المنافسة كامنة في صدور الكثيرين.."

لم يعلق الحارس الآخر وهو يرى زميله يقترب من بوابة السفينة فيجذب رافعة صغيرة فيها بانتظار أن يفتح بابها تلقائياً، لكنها ظلت صامتة تماماً كالقبر.. عاد الحارس يجذب الرافعة عدة مرات قبل أن يقول بقلق "إنه لا يعمل وهذا شيء غريب.. أيمكن أن تكون معطلة؟"

قال الحارس الآخر "ستكون هذه مصيبة.. هذه السفينة هي وسيلتنا الوحيدة للمغادرة من هذا القبر الكبير.."

غمغم الأول بسخط "اللعة على المؤسسة وكل من فيها.."

وأخذ يبحث عن وسيلة أخرى لفتح الباب قد لا تكون ظاهرة للعيان.. لم تكن لدى الحراس أي خبرة بخبايا السفن الفضائية فهذا كان عمل المهندسين المسؤولين عنها.. لذلك لم تكن مهمة الحارس سهلة وهو يحاول مئات المرات دون يأس.. لا يمكن فعل أي شيء من خارج السفينة، فالمحركات لا يمكن الوصول إليها إلا من داخل السفينة، حيث وضعت في غرفة خاصة واسعة ذات تجهيزات مناسبة لها.. وبعد مرور ما يزيد على الساعة من المحاولات الفاشلة، جلس الحارس أرضاً وهو يتصبب عرقاً للحر الشديد في الحظيرة وهو يقول "مستحيل.. جربت الأمور كلها.. إنها تستعصي علينا تماماً"

تساءل الحارس الآخر الذي كان معه طوال الوقت "وماذا لو حاولنا فتحه بالقوة؟"

نظر له الأول باستنكار قائلاً "أأنت أحمق؟ وكيف سنعبّر بها الفضاء الخارجي بباب مفتوح؟ استعمل عقلك قليلاً يا رجل"

ظل الآخر صامتاً بحيرة وهو يتأمل الباب، ثم تقدم منه فجأة وهو يتساءل "ما وظيفة هذا برأيك؟"

نظر الأول لجزء معدني من السفينة أسود اللون بحجم الكف، وغمغم "لست أدري.. لقد ضغطته عدة مرات دون فائدة.. ثم إنه بعيد عن الباب كثيراً، فلا يبدو أن له شأن به"

تفحصه الحارس الآخر لثوانٍ بصمت، ثم نزع القفاز الذي يرتديه الحراس عادة من يده مغمغماً "ماذا لو كان.."

وضع يده على الجزء المعدني بخفة، وعلى الفور أضاءت شاشة في ذلك الجزء وسرعان ما التمعت بضع كلمات فوق يده باللون الأحمر.. عندها قال الحارس الآخر وهو يبعد يده "يقول إن الدخول ممنوع.. يبدو أنه مخول لفتح الباب لأشخاص محددين فقط.."

سارع الحارس الأول يدفعه بلهفة وهو يقول "ابتعد.. أعرف طريقة أخرى للتغلب على هذا"

واستخرج من جيبه سكيناً صغيرة، فقام بحرص بدفعها بين الجزء المعدني وبين جدار السفينة.. ثم

قام بدفع الجزء للخارج برفق شديد حتى سقط في يده الأخرى.. ومن خلفه ظهرت عدة أسلاك متصلة بفتحة في جدار السفينة، وفي ظهر ذلك الجزء المعدني ظهرت لوحة صغيرة مكونة من عدة أزرار تحمل أرقاماً.. فقال الحارس الأول "يمكن في حال تعطل هذا الجزء استخدام هذه اللوحة الصغيرة لإدخال رقم سري يخولنا فتح باب السفينة"

نظر الحارس الآخر للوحة بشيء من الإحباط قائلاً "لكننا لا نعرف ذلك الرقم السري أبداً" قال الأول بلهفة "سنعرفه بالتأكيد أو نتحايل عليه.. المهم الآن أن نخبر ذلك العالم بكل ما وجدناه.. لابد سنجد طريقة"

أعاد الجزء المعدني برفق لموقعه السابق، ثم أسرع يجري اتصالاً من جديد بخالد ليعلمه بآخر ما وصلا إليه.. وهذه خطوة صغيرة خطونهاها في سبيل حريتنا المنشودة..

\*\*\*\*\*

وقفت وسط ساحة المساكن أتأمل ما ظهر من السماء من بين الأشجار.. بينما انشغل أدهم خلفي بتناول بعض الطعام الذي أحضره الحراس من مخازن المباني الإدارية.. طال وقوفي كثيراً حتى سمعت أدهم يقول "هلا كففت عن هذا؟ لقد مضت ساعة على موعد قدوم السفينة الفضائية ولا أثر لها.. ألن تستسلمي؟"

غمغمت "لا بأس من بعض الرجاء.. من يدري..". رأينا الحارس الذي رافقنا في قدومنا يقترب من أدهم ويقول له "هيا بنا.. لا يجب أن نتأخر أكثر من هذا فعدة ساعات تفصلنا عن المساكن التالية"

نهض أدهم بعد أن أنهى طعامه بسرعة، ونهضت بسمة التي كانت تجلس جانباً بصمت.. فتوجهنا للمركبة القريبة والحارس يقول "لقد وصلتني أخبار جديدة.. يبدو أنهم عثروا على سفينة فضائية في حظيرة مهجورة"

اتسعت أعيننا بدهشة وقلت أنا بابتسامة "مرحى.."

أضاف الحارس ونحن نصعد المركبة ونطلق بها "لكنهم لازالوا يبحثون عن جهاز اتصالات.. كما تعرفون لقد تعطلت أجهزة الاتصالات تماماً مع المباني التي دمرت.. لا يمكننا استقبال أو إرسال أي رسالة أو حتى إشارة نداء لأي مكان خارج الكويكب.."

فقلت بتعجب "ولم إرسال أي نداء للخارج مادامنا نملك السفينة؟"

قال الحارس بضيق "لكنها معطلة"

ابتسمت وقلت "سفينة معطلة أفضل من لا شيء"

فقال الحارس رافعاً حاجبيه "وما الفائدة؟ لا يملك أحداً أي خبرة ليقوم بإصلاحها.. وأشك أن يملك الحراس خبرة كهذه.. ورغم أن خالد عالم لكنه أبدى عدم معرفته بالسفن الفضائية ونظامها.."

فقلت "ألا يوجد أي مهندس هنا؟"

قال الحارس بضيق "أنت تعلمين أنهم جميعاً قد غادروا.. لم يبق إلا السجناء وبعض الحراس عديمي الأهمية بالنسبة لـ.."

قاطعت قائلة "أعني بين السجناء.. ألا يمكن أن يكون أحد السجناء مهندساً من أي نوع؟"

غمغم بدهشة "أظنن أننا قد نجد مهندساً بين السجناء؟"

قلت "ما الذي يمنع أن نجد واحداً بين المئات على الكويكب؟"

فقال الحارس "سأتصل بوليد فوراً وأطلب منه البحث بين السجناء.. فقط أتمنى ألا يكون المهندس الذي نعثر عليه فاقداً للذاكرة"

لم أعلق وأنا أدور ببصري حولي.. رغم كل شيء، أشعر أننا محظوظون كثيراً.. رحيل الإداريين قد سهل علينا أموراً كثيرة لا يمكن أن تتم بوجودهم.. وأهم شيء هو تحركنا بحرية في أرجاء الكويكب دون خوف أو ترقب.. وهو شعور افتقدناه منذ زمن طويل..

\*\*\*\*\*

عندما وصل خالد للمهبط القديم، ورأى السفينة الفضائية الضخمة، لم يعلق بكلمة بل غادر الحظيرة واتجه من فوره لمبنى صغير قرب الحظائر كان في السابق يعمل كمركز مراقبة للمهبط.. وعند المبنى، ساعده أحد الحراس في تحطيم الباب الذي كان مقفلاً بطلقات من رصاص سلاحه، ثم ركل الباب لينفتح بقوة مثيراً غباراً في المكان الذي يبدو أنه لم يستخدم منذ مدة طويلة..

دلف خالد المبنى غير عابئ بسحابة الغبار التي غطته، وتفحص القاعة الصغيرة التي يقف فيها.. كانت آثار الإهمال واضحة فيها والعديد من الكراسي محطمة وبعض الأجهزة مدمرة تماماً.. تفحص خالد الأجهزة بحثاً عن جهاز اتصالات دون أن يعثر على أحدها، ثم سارع يرتقي السلم الجانبي ليصعد لغرفة علوية واسعة ذات نوافذ تغطيها من جميع الاتجاهات وتصنع رؤية شاملة للمنطقة حولها.. كان الإهمال قد لحقها أيضاً بينما خلت تقريباً من الأجهزة التي يبدو أن شخصاً ما نقلها من موقعها.. وبعد بحث شامل تنهد خالد وهو يقف مغطى بالغبار وقال "يبدو أنهم أدخلوا المكان تماماً من أجهزة الاتصالات"



علق الحارس الذي ساعده في البحث "ربما نقلوها للمباني الإدارية"  
 فقال خالد "معنى هذا أن وسيلتنا الوحيدة تكمن في سفينة الفضاء.."..  
 وأسرع يغادر المكان بعد أن ألقى عليه نظرة شاملة، وفي الخارج، قال خالد وهو يتجه لحظيرة  
 السفينة الفضائية "هل أخبرتم الحراس أن ينقلوا السجناء لهذا الموقع؟"  
 هز الحارس رأسه نفيًا، فقال خالد "اطلبوا منهم إحضار جميع السجناء لهذا الموقع.. هذه السفينة  
 هي وسيلتنا الوحيدة للخروج من الكويكب.."..  
 ثم أضاف باهتمام "واطلب منهم أن يبحثوا بين السجناء عن مهندس ومبرمج"  
 تطلع الحارس إليه بتعجب معلقاً "مبرمج؟"  
 استحثه خالد قائلاً "نفذ هيا.. لا نملك وقتاً نضيعه.."..  
 أسرع الحارس ينفذ أمره دون اعتراض، بينما وقف خالد عند باب الحظيرة يدور بعينه في المكان  
 يتأمل السفينة الضخمة والتي كانت تستعصي عليهم ولم يتمكنوا حتى من فتح بابها بعد.. فغمغم خالد  
 "هيا أيتها الجميلة.. آمالنا معلقة بك.. فلا تخذلينا.."..

\*\*\*\*\*

عندما وصلنا للمنجم الثاني، كانت الشمس قد توسطت السماء.. فلم نتأخر كثيراً في عملنا بغية  
 الانتهاء ونقل السجناء لموقع السفينة قبل حلول الظلام.. كان الحراس متعاونون بعد أن تلقوا اتصال  
 وليد وفهموا الوضع جيداً، فلم يسببوا لنا أي مشاكل ولم يعطلوا عملنا.. بدأ أدهم وبعض الحراس  
 باستجواب بعض السجناء الذين تجمعوا في وسط الساحة، بينما فضل آخرون البقاء في مساكنهم  
 حتى يأتي دورهم..  
 وقفت في جانب الساحة مع بسمة بانتظار أن ينتهي أدهم ممن عنده لنبداً عملنا في إعطائهم الجرعة  
 المطلوبة وتجميع بقية السجناء في الساحة.. وبينما نحن في صمت مترقب، تناهى لسمعي صوت  
 خافت يتخلله شهيق قوي.. نظرت حولي بدهشة، ثم اقتربت من أقرب باب لي ودلفت المسكن بسرعة  
 لأجد تلك المرأة قد وقعت عن سريرها، متشبثة بكل ما تطاله يدها، وهي تشهق بقوة وعيناها المتسعتان  
 تحملان لي رسالة صامته أدركتها على الفور..  
 ورغم أن ما رأيته لم يكن غير متوقع، إلا أنه جاء كصدمة لي وأعاد لي ذكريات بغیضة تمنيت أن  
 أنساها.. لم أنتظر ثانية بعد رؤيتها، وهرعت لأقرب صندوق يحوي علب الإبر المليئة بالعقار الشفاف،  
 وسط دهشة الحراس وأدهم الذي سألني "ما بك؟"

صحت به “هناك من فقد القدرة على التنفس.. أعراض نفاذ العقار قد بدأت في السجناء هنا..” حملت إحدى الإبر وركضت عائدة للمسكن، فاندفعت للمرأة التي تكاد تمزق عنقها لشدة الألم، ورفعت كمها للأعلى وأنا أقول “صبراً.. ستكونين بخير..”

وأسرعت أضربها بالإبرة وأدفع جزءاً من العقار في جسدها.. استمر شهيقها المتلاحق لمدة بسيطة قبل أن تهدأ قليلاً والعرق يتصبب على وجهها.. وتراخت يداها عن عنقها وهي تسعل قليلاً.. اطمأنت لنجاتها، ثم تركتها وهرعت للخارج حيث وقف أدهم ينظر لنا متعجباً، فقلت له ولبسمة التي وقفت خلفه ترتجف رعباً “لقد بدأت الأعراض في السجناء هنا.. أخشى ألا تكون تلك المرأة هي الوحيدة.. ابحثوا عن أي شخص يواجه عسراً في التنفس وابدأوا به”

انطلق أدهم بالفعل بينما وقفت بسمة تغطي فمها بيديها وهي ترتجف، فربت على كتفها وأنا أقول “بسمة.. يجب أن تساعدنا.. تجاوزي ذعرك هذا وابذلي جهدك لئلا نخسر أي روح هنا..”

هزت رأسها إيجاباً وأسرعت للصندوق وتناولت علبة تحتوي عدداً من الإبر، فتناولت أخرى بدوري واتجهت لأقرب مسكن.. كنا نبحث بين السجناء عمن يعاني من اختناق وضيق في التنفس ونبدأ به.. ووفقاً لوصية خالد فقد كنا نستخدم نصف الجرعة لكل شخص.. هذا يمنحهم نصف المدة المعتادة، لكن هذا ضروري إذ ما بقي من الجرعات لا يكفي لهذا الكم الهائل من السجناء..

كانت الأعراض قد بدأت بشكل متفاوت بالفعل في هذه المساكن.. البعض من السجناء قد هرع إلينا يشتكي ضيق تنفسه.. والبعض منهم قد تهاوى أرضاً وهو عاجز عن الحركة وعن التنفس.. فكنا نسرع بحقنه بالدواء قبل أن تتفاقم حالته.. ولم نكن نعلم بالضبط كم من الوقت لدينا منذ بدء الأعراض حتى يصبح الشخص في مرحلة خطيرة.. لكنها لا تتجاوز دقائق معدودة بحال..

انشغلت مع إحدى النساء في المساكن والتي سقطت أمام باب مسكنها وهي تشهق بقوة.. فدفعت الإبرة في جسدها وأنا أرى الزرقة تشتد في شفثتها وهي تتشبث بملابسي بقوة.. وما إن بدأ السائل يعمل عمله في جسدها، بدأت تسترخي أكثر وإن ظلت متشبثة بي.. فظللت معها لدقيقة أطمئن على نجاتها، عندما سمعت ارتطاماً خلفي.. التفتُ بدهشة لأرى ذلك الشاب الذي لم يكن يتجاوز العشرين بحال، وقد غدت قدماه عاجزتان عن حمله فسقط أرضاً وهو يشهق بقوة ويحاول الزحف بوجه محتقن وعينان متسعتان..

تخلصت من قبضة المرأة وتناولت آخر إبرة أملكها واندفعت نحوه.. لكن عندما وصلت إليه وحاولت رفع كم ثوبه، وجدته يتشبث بي ويعيق حركتي وعيناه الصامتان ترجوانني أن أنقذه.. دفعت يده بعيداً وأنا أرى احمرار عينيه وزرقة شفثته مما دلني على سوء حالته.. فمزقت كم ثوبه بسرعة وتناولت الإبرة.. لكنه لوح بيده بقوة ولطمني على يدي بغير وعي مما ألقى الإبرة بعيداً..

اتسعت عيناى ذعراً وأنا أرى الإبرة الزجاجية محطمة بعد ارتطامها ببعض الصخور، وبجهد، تخلصت من قبضة الشاب وركضت بأسرع ما عندي نحو الصندوق الذي ربح وسط الساحة.. كان الصندوق خالياً إلا من بعض الإبر الفارغة.. فهمست بذعر "لا.. لا يمكن"

وأسرعت عائدة لبسمة القريبة والتي كانت تعتنى بفتاة لا تتجاوزها كثيراً في العمر.. فتناولت اللعبة التي تملكها ويبد مرتجفة أخذت آخر إبرة لديها، وعدت بسرعة لذلك الشاب الذي استلقى على ظهره ويداه تخدمشان عنقه بقوة.. كانت شهقاته قد خفتت وتحشرجت كثيراً، وامتلاّت عيناه بالدموع وهو ينظر لي بياس ورجاء هزّ أعماقي بشدة.. تناولت الإبرة ودفعتها بأقوى ما أستطيع في ذراعه، ودفعت السائل الذي فيها كله في جسده وأنا أهمس "هيا.. ستكون بخير.. ستغدو بخير بالتأكيد.."

شعرت بصوته يتحشرج ويخفت كثيراً، قبل أن تتراخى يده عن عنقه الدامي، وتسيل دمعة كانت معلقة بعينه التي شخصت بعيداً.. نظرت له بذعر وصدمة، ثم همست بارتجافة "لا.. مستحيل.. لقد حققتك بالعقار.. لم أتاخر.. أليس كذلك؟"

حاولت أن أضربه بقوة على صدره علّ رتتيه تبدء أن بالعمل من جديد.. علّ دفعة من الهواء تملأهما وتعيد له الحياة من جديد..

سمعت صياح بسمة من خلفي "لقد نفذ الدواء.. ما الذي سنفعله الآن؟"

شعرت بارتباك أدهم والحراس، وسمعت الحشرجات المتفرقة في المكان، لكنني ذهلت عن هذا كله ودمعتين تسقطان من عيني وأنا أرى المنظر الذي تمنيت ألا أشهده أبداً.. تأملت ملامح الألم والرعب على وجهه، وتأملت الدماء التي لطخت أصابعه والزرقة التي زحفت على شفتيه.. تأملت الدمعة التي سألت على خده كرجاء أخير لم أستطع تحقيقه.. ثم أغمضت عينيّ بألم شديد وأنا أهمس "اللجنة.. ذنب من هذا؟ بأي حق تركوه لهذا المصير؟ بأي حق قرروا أنه لا يستحق الحياة؟ تباً لهم.. تباً لهم جميعاً.."

\*\*\*\*\*